Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 12:2-3-4 (1977)

محمد اقبال

الشاعر الذى فرض نفسه على الدنيا و على الزمان

للدكتور طه حسين

شاعران اسلاميان رفعا مجد الآداب الاسلامية الى الذروة، و فرضا هذا المجد الأدبي الاسلامى على الزمان . أحدهما اقبال شاعر الهند و الباكستان و ثانيهما أبو العلاء شاعر العرب .

شاعران يتقاربان كأشد ما يكون التقارب، ثم يتباعدان كأعظم ما يكون التباعد كلاهما شاعر أولا و كلاهما فيلسوف و كلاهما أخضع الفلسفة للشعر، وأخضع الشعر للفلسفة . وما أصعب التوفيق بين هذين الفنين الخطيرين . وكلاهما تصوف ، حتى بلغ الغاية من التصوف ، و كلاهما، بعد ذلك، خرج على التصوف التقليدى المعروف، واتخذ لنفسه سبيلا خاصا فى التصوف لا يكاد يشاركه فيه أحد غيره . وكلاهما أثبت شخصيته كأقوى ما يكون اثبات الشخصية، ودعا الانسان الى أن يعرف نفسه حق معرفتها، والى أن يفرض نفسه على الدنيا، و يفرضها على الزمان، ولا يفنيها فى أحد غيره مهما يكن . ولكنهما بعد ذلك يختلفان و يفترقان أشد الافتراق، أحد هما — وهو أبو العلاء — كان فى أيامه ينظر الى الهند و يطيل النظر اليها، والأخذ عنها والتأثر بها، حتى التزم فى حياته حياة المتنسكين من البراهمة .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

احتاج المسلمون الى نحو عشرة قرون ليوجد بينهم ثان لابى العلاء، ولكن اقبال كان أحسن حظا من صاحبه . فهو قد عاش فى عصر غير العصر الذى عاش فيه صاحبه . عاش ابو العلاء فى عصر كان المسلمون قد أخذوا يضعفون و ينحطون فيه، و أخذ العنصر الأعجمى والعنصر التركى بنوع خاص يتسلط فيه على المسلمين . و أخذت أوروبا تتحفز لغزو الشرق فى غزواتها الصليبية المعروفة، فكان ساخطا على الحياة سهيبا بالمسلمين أن يغيروا من أمر أنفسهم ليغير الله من أمرهم .

و عاش اقبال فى عصر آخر، عصر كان المسلمون فيه، كما نراهم الآن، متفرقين، و من حقهم أن يأتلفوا، ضعافا و من حقهم أن يقووا، و فى الوقت نفسه فيهم استعداد و تحفز للنهضة والقوة والحياة والتضامن، ولكن لهم أعداء خطيرين يدبرون لهم الكيد و يضمرون لهم المكروه، وهم هؤلاء المستعمرون فى الغرب . فالعصران يتشابهان من جهة و يختلفان أشد الاختلاف من جهة أخرى . فلم يعرف أبو العلاء هذا العلم الكثير الذى أتيح لأقبال أن يعرفه . ولم يعرف هذه الفلسفة الكثيرة التى أتيح لأقبال أن يعرفها . ولم يعرف هذه الحضارة المادية الهائلة التى استطاع اقبال أن يعرفها، و أن يقبل منها أقلها و يرفض أكثرها .

و دعوة الرجلين واحدة . كلاهما يدعو العالم الاسلامى أولا والانسان ثانيا الى أن يعرف نفسه و حقه ويفرضهما فرضا، ولا يفنى فى أحدهما يكن ، ولا يفنى حتى فى الله نفسه .

و أشد ما ينكره اقبال، و أشد ما ينكره أبو العلاء على المتصوفة فكرة الفناء هذه . فابو العلاء ناقش المتصوفة أشد المناقشة . ولم يكره من مذهبهم شيئا كما كره منهم هذا الفناء فى الذات الالهية الذى يقولون به . كما كره منهم

العبث بعقول الناس . و أقبال متصوف ستقشف سدرك للفلسفة العليا وللمثل العليا فى أروع صورها وأجملها . ولكنه لا يريد سطلقا أن يفنى فى هذا النور الالهى الخطير العظيم، بل يستوجب أن يحتفظ بشخصيته و أن ينظر الى هذا النور و يطالعه و يخاطب ربه خطاب العالم به المريد أن يخاطبه وأن يسمع سنه، لا لأن يفنى فيه و ينكر وجوده و ينكر نفسه و يصبح ضائعا فى هذه القوة الالهية العليا . لا يريد اقبال أن يضيع، ولا يريد لأحد سن الناس أن يضيع، ولا يريد للانسان أن يفنى فى الانسان ، ولا أن يفنى فى الله . انما يريد للانسان أن يعين. الانسان ، و أن يتضاسن معه على الخير ، وأن يعبد الله عالما به سكبرا له ، و لكن سعترفا بنفسه وسؤسنا بها . ذلك لأن الله عندما أمر الناس بعبادته لم يأمرهم بان يفنوا أنفسهم فيه، وأنما أمرهم بان يعيشوا أحرارا سؤسنين بشخصيتهم مستقلين. ولولا هذا لما كلفهم هذه التكاليف التى فرضها عليهم. فان الله لم يكن ليكلف نفسا أن يصلى و يصوم و يؤدى الزكاة و يحج الى آخر هذه التكاليف التى فرضها على الانسان . فنفس هذه التكاليف التى فرضت على الانسان أنما فرضت عليه ليكون فردا سستقلا، سستقلا ثابتا أسام ربه، يعبده عن ارادة لهذه العبادة، و يذعن له عن ارادة لهذا الاذعان .

والغريب أن الرجلين اشتركا أيضا فى هذا التفكير المتصل بالملأ الأعلى . و كلاهما فكر فى هذه المعجزة التى جاءت فى القرآن، وهى سعجزة الاسراء . فكر فى هذا كلاهما، وحاول كلا هما ان يسرى كما أسرى بالنبى .

فابو العلاء فكر فى الجنة و فكر فى النار و حرص على أن يسيح فى الجنة والنار، وأن يكون ستفرجا، وأن يتحدث الى الناس عن الجنة والنار، وعما يكون فى الجنة والنار، فألف ((رسالة الغفران)).

و صاحبنا الذى نذكره اليوم مكبرين له مجلين له أبى هو أيضا الا أن يعرج فى السماء كما عرج محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن كلا الرجلين عرجا الى السماء فى خيالهما . واقبال يزور السموات و يتخذ له من هذه الزيارة دليلا من المتصوفة هو جلال الدين الروسى، فيزور القمر و يزور المريخ و يزور كواكب كثيرة، صاحبه هذا يدله كما كان ((دانتى)) فى القرون الوسطى يطوف بالجنة والنار والأعراف و معه الشاعر اللاتينى القديم ((فرجيل)) يهديه فى هذا التطواف كذلك فعل اقبال . وأكبر الظن أنه لم يعرف دانتى الا فى العصر الأخير من حياته .

مهما يكن من شئ فقد طوف اقبال فى السموات كما طوف فيها أبو العلاء و لكن النتيجة لهاتين الزيارتين متناقضة عند الرجلين أعظم التناقض . فاما أبو العلاء فعاد من زيارته للجنان والنار ساخرا منكرا يوشك أن يخرج على الدين . وأما اقبال فعاد من زيارته مؤمنا متعظا معتبرا يريد أن يملأ الدنيا موعظة و عبرة بعد هذه الزيارة الى هذه السموات .

أفنى الأستاذ الصديق عبدالوهاب عزام وقتا كبيرا و بذل جهدا عظيما و قدم الينا حياة اقبال و طائفة من شعر اقبال . وهو ماض فى ترجمة ما بقى من شعره فنحن مدينون له بكل مانعرفه عن اقبال باللغة العربية، و سيزداد هذا الدين شيئا فشيئا كلما أضاف الى تراجمه التى بين أيدينا ترجمة أخرى . وأحب أن نكون أوفياء وأن نكون كراما على أنفسنا . وأول حقوق الكرامة هو أن نعرف الحق لأهله، وأن نذكر اقبال اداء لما له علينا جميعا من دين . فهو الذى دعانا الى الخير، و أشاع فينا هذا الأمر بان نعرف أنفسنا و حقوقنا و نجاهد فى سبيل الحق والخير والجمال .

واذا ذكرنا اقبال و أكبرناه و تمنينا أن تنفع كلماته هذه الخالدة، وأن يصبح المسلمون جميعا متأثرين بهذه المذاهب العليا، اذا ذكرنا اليوم اقبالا و أكبرناه فأظن من أيسر الحق علينا أن نذكر و نشكر الأستاذ عبدالوهاب عزام، فهو الذى كان صلة بيننا وبين اقبال .

نقلا عن كتاب — محمد اقبال —
فيه مجموعة من مقالات لصفوة من كبار الكتاب،
مع الشكر ـ